العرب
السبت 2019/11/09
السنة 42 العدد 11523

مع هيمنة التكنولوجيا بات المؤلف يموت مرتين

«القراءة رافعة رأسها» يناقش قضايا القارئ والفلسفة في مجتمع الفرجة

شغلت العلاقة الإشكالية (القراءة - القارئ)، الناقد والمفكّر والكاتب على السواء. فقد صار التفكير في شأن القراءة وأهمية القارئ أمرا حيويّا، وموضوعًا مطروحًا على المشاع في ظل اتساع سُلطة القارئ، التي أخذت مساحة غير قليلة وسلطة أكبر بفضل عوامل كثيرة أهمها ثورة التكنولوجيا.

مجتمع الفرجة كسول بطبعه (لوحة للفنان تحسين الزيدي)

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

أدخلت الثورة التكنولوجية الحديثة القارئ طرفًا مهما في لُعبة الكتابة حتى قيل "كان ينبغي إعلان موت المؤلف كي يولد القارئ، إذا كان من المستحيل أن نرى في القراءة فعلًا بحق من غير أن تتهاوى السُّلطة التي كانت تدَّعي الهيمنة عليها".

يُخطئ من يتصوّر أن كتاب "القراءة رافعةٌ رأسها" للدكتور عبدالسلام بنعبد العالي كتابٌ عن القراءة، وإن كان لا يغفل أهميتها سواء بتصديرها كعنوان للكتاب، أو بجعلها أحد موضوعاته الأساسية. خاصة أن القراءة هي الفضاء الوحيد الذي تتحقق فيه الدلالات المتعددة.

> مجتمع الفرجة له تأثير على الفلسفة خاصة في ظل ذيوع الأفكار الجاهزة، وما تقوم به الصورة من غرس البلاهات

يتكوّن كتاب "القراءة رافعةً رأسها"، الصادر مؤخرًا عن دار نشر توبقال 2019 في المغرب، من فصول قصيرة، تأخذ عناوين مستقلة، وهي تبدو وكأنها مقالات كُتبتْ مُتفرقة وجمعها إطار التأمّل وإعادة القراءة؛ التي هي بمثابة بناء أو إنتاج وتحول.

فيحضر "مجتمع الفرجة" وهو يقصد مجتمع الإعلام بما يحتويه من إعلان وموضة واستطلاع رأى التي هي أشبه بالمرآة التي تعكس الأذواق والمطامح والرغبات والميول، خاصة في ظل قدرة الإعلان على مخاطبة المواطن لا على أساس أنها مستهلك وإنما على أنه فرد له القدرة على الاختيار وأنه يعرف ما يريد وقادر على تدبير أموالة والعناية بصحته ورعاية شؤونه.

فالفرجة ليست مجموعة من الصُّور وإنما "علاقة اجتماعية تتوسط الصور". ويدرس أيضًا تأثير هذا المجتمع على الفلسفة، خاصة في ظل ذيوع الأفكار الجاهزة، وما تقوم به الصورة من غرس البلاهات. في مقابل ما تقوم به الفلسفة من مواجهة لكل نزعة كليانية، بل تسعى إلى تجاوز الإعلام كتقنية، أو كما يدعونا نيتشه إلى "إزعاج البلاهات ومقاومتها".

ويتطرق إلى فن الكرة التي تحوّلت إلى لعبة في غاية الجدّ؛ حتى أصبحت "قضية الكرة قضية دولة" كما ذكر غاليانو. فصار الذي يتحكم فيها عبارة عن مؤسسات لها إدارتها الاقتصادية والسياسية، وبما تخلق من عوالم جديدة، حيث تتحول البلدان من بلدان صغيرة إلى علامات ترفرف أعلامها بين الأعلام الدولية.

ويشير إلى دورها في تحديد الهويات ورسم الأوطان، بل تجاوزتهما إلى تحديد الجغرافية السياسية والعلائق الدولية والولاءات للأوطان؛ حتى صار يصدق القول بأن "فرقنا الكروية غدت اليوم هي أوطاننا".

ويدرس علاقة الفلسفة بالأدب، التي ترجع إلى الرومانسيين؛ فالفلسفة كما يقول نيتشه "ممارسة أسلوبية" أو على حدّ تعبير جاك دريدا "هي نوع خاص من الكتابة، يسعى إلى محو أو إخفاء خاصيتها الكتابية". ويبحث أيضا عن سيميولوجيا للحياة اليومية، وما ليس يوميًا في الحياة اليومية، والحداثة المتلكئة، واللباس والهُوية، وفي الحق في الاختلاف، واليومي والتاريخي وغيرها من موضوعات تتصل بالفلسفة في كثير منها.

حيث كيف يتحول اليومي كمباراة الملاكمة إلى دلالة فلسفية، أو سردية من السرديات. ويشير إلى مسألة في غاية الخطورة مُتعلّقة باللباس، فيرى أنه لا علاقة للباس بالهوية، فاللباس لا يدل على هوية بقدر ما يدل على تشيّع واختلاف. فهو علامة تمييز وتميّز. كما أن الملابس كما يقول إيكو تبعدك عن ذاتك، فمن الملابس "ما يفرض عليك أن تعيش من أجل الخارج".

وفي حديثه عن القراءة والقارئ، يأخذنا المؤلف في رحلة عن التطوّر الذي صاحب مفهوم القراءة، وإعلاء سُلْطة القارئ ذاته، بل يذهب إلى آراء مفكرين كبار كرولان بارت، وألتوسير وبول فاليري وغيرهم ليستدل بآرائهم على أهمية القراءة، وسلطة القارئ الجديدة، التي جعلت فاليري الذي لا يعتدّ إلا بسلطة النص دون سواها. فمع أن النص هو "وليد كتابات متعدّدة تنحدر من عدة ثقافات" -كما يقول بارت-، إلا أن هناك موقعًا يتجمع عنده هذا التعدد. هذا الموقع ليس المؤلف كما قيل و"إنما القارئ".

تحول القارئ إلى كاتب يجعل من القراءة، ليس مقصودًا منها استعادة للمعنى الذي أودعه المؤلف النصَّ، وإنما ستغدو بناء، وليست إعادة بناء المعنى. فتصبح عملية إنتاج وتحويل، والقارئ مثلما هو الذي يبني النص، هو أيضًا مفعوله. ويتوقف المؤلف عند طرائق الكتابة لدى البعض، وهو يتأمّل معاني الثقافة المتعبة والثقافة المريحة عبر ثنائية الكراسي والأرائك.

ويشير إلى الدور الذي تلعبه الوسائط الجديدة في عملية الكتابة، خلافًا لما كانت تقوم به الوسائط التقليدية ذات الاتجاه الوحيد كالمذياع والتلفاز والصحف، حيث كانت تُسهم في صناعة الرأي العام، في حين الوسائط الجديدة تتيح للأفراد إنتاج الأفكار لا تلقيها أو ترديدها. أما عن تأثيرها على الكتابة والنشر، فقد أحدثت تغيرات عميقة على الكتابة، وأعطت للمكتوب خصائص لم يكن له عهدٌ بها من قبل. والأهم أنها تغيّر طرق الكتابة وأساليبها، وفي المقابل تطبع تصرف الكاتب وتحدد سلوكه. لدرجة أن الكاتب صار يخلط (شعوريا أو لاشعوريا) بين أقواله هو وأقوال غيره فيهمل الضوابط التي تتقيد بها الكتابة الخطية.

أما عن سمات الوسائط الجديدة، فلقد تمكّن الرقمي من تحويل المعطيات إلى لغة. كما أن الطابع التبادلي للشبكات الرقمية يُعطي لمستخدمي التكنولوجيات الحديثة مكانة لم يكونوا ليرقوا إليها في ما قبل. لقد جعلت الثورة التكنولوجية من الذاكرة وظيفة مادية آلية وصنعيّة. ويعيب على عالم اليوم غياب الاختلاف وسيادة التبسيط والأحادية والتنميط الثقافي. وهو ما يستلزم بناء نموذج ثقافي جديد ونسج شبكات مقاومة تعلن حربًا شعواء على التنميط والأحادية. وهو ما يُعزّز وجود دور جديد للمثقف يتجاوز التبشير بالعدالة والخير الأسمى، الذي كان سائدًا من قبل أو حتى الاصطفاف إلى جانب الأخيار ضدّ الأشرار، إلى المقاومة الجذرية، وهو ما يستدعي دخول الفلسفة كشريك في خلق طُرق جديدة في التكفير، فتبعث الاختلافات وتنعش الفروق. كأن تكون الفلسفة مُقاومة للنماذج الثقافية التقليدية.

أخطر هذه السِّمات هو ما أطلق عليه الموت المزدوج للمؤلف، حيث أتاحت هذه الوسائط غياب المصدر الأصلي للنص، بسبب سرعة قفز النص بين المواقع والسباحة في الشبكة. فصارت منابر القراءة عائمة في "اللامكان". وقد أثّرت هذه التحولات على مصطلحات جهازنا النقدي. فغابت مفاهيم كالسرقة، والنّص الأعظم، بل صار من غير المجدي أن نتحدث عن أدب واقعي بعدما عانق الافتراضي الواقعي.

لماذا لا تدرك المتغيرات.. فتعصف بك المتغيرات؟

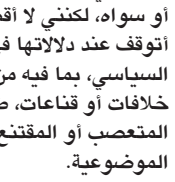

حميد سعيد
كاتب عراقي

في ما أكتبه هذا اليوم، قد أتوقف عند بعض الأمثلة والشواهد، ذات مصادر سياسية، أي أن مرجعياتها حالات استقيتها من هذا الفضاء السياسي أو ذاك، ومن هذا السياسي أو سواه، لكنني لا أقصد، بل لا أريد أن أتوقف عند دلالاتها في العمل السياسي، بما فيه من تعصب أو خلافات أو قناعات، طالما قادت المتعصب أو المقتنع، بعيدا عن الرؤية الموضوعية.

وسأحاول أن أنظر إلى هذه الأمثلة والشواهد، من جانبها المعرفي ودلالاتها الاجتماعية، غير أن حالة عدم إدراك المتغيرات لا تظهر لدى السياسيين فقط، وإن كانت أكثر ظهورا في أوساطهم، لأن نتائجها تتجاوزهم، كأفراد أو جماعات، إلى ما هو عام في المجتمعات والحياة، بل تظهر لدى عامة الناس ومنهم من يعدون في المثقفين والمبدعين، ممن يظلون متشبثين بما عرفوا من قبل وما نشأوا عليه، فيرون في كل ما هو مختلف عمّا عرفوا من قبل وما نشأوا عليه ممّا يجب اجتنابه.

إن الوعي بمتغيرات الأجيال، كان وما زال حاضرا على صعيد المقولات والتناول الفكري، إذ قال الفيلسوف الإغريقي سقراط، "لا تكرهوا أولادكم على آثاركم، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم"، وهناك من ينسب هذه المقولة إلى أفلاطون، وتنسب مثل هذه المقولة إلى الإمام علي بن أبي طالب وهي؛ "لا تؤدبوا أولادكم بأخلاقكم، لأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم".

غير أن كثيرين من أولي الأمر في التاريخ الإنساني، في الماضي والحاضر، ومن عامة الناس أيضا، يتصرّفون على الضد من هذا الوعي بالمتغيرات في الأجيال والمراحل، ويحاولون فرض ما عرفوه وما نشأوا عليه، على الآخرين وعلى الحياة، ويجدون في الاعتراض على قناعاتهم، قولا أو فعلا، تجاوزا على ما يعدّونه من الثوابت والمقدسات، فيمارسون على المعترض القمع والاضطهاد والتخوين، بل التكفير أيضا، بغطاء الأعراف والأخلاق والقانون والدين، ويوظفون وعّاظ السلاطين من كل صنف ومن كل نوع، لمنح مقولاتهم وتصرفاتهم صفات القداسة والحق والحقيقة.

ورغم أن التجارب الإنسانية في كل زمان ومكان، كان فيها النصر لوعي المتغيرات، حتى يكاد يكون الجديد هو المستقبل، سواء في الأنظمة أم في الأفكار أم في يوميات الحياة وما يقترن بها من خلق وإبداع، نجد أن أصحاب السلطة، إلا في ما ندر، يتشبثون بما هم عليه، فلا يدركون المتغيرات ويغضون الطرف عنها، وطالما فاجأتهم وعصفت بهم وبأوهامهم وعصبياتهم.

وأصحاب السلطة هنا، ليسوا الحكام والحكومات فقط، بل جميع المتشبثين بحدود معارفهم وما نشأوا عليه من قناعات، وعلى سبيل المثال، إن ما حدث أخيرا في كل من العراق ولبنان متمثلا في انتفاضتين شعبيتين حقيقيتين، فجرتهما وقادتهما وتحملت أعباءهما وقدّمت في سبيل انتصار أهدافهما التضحيات، أجيال شابة مسلحة بوعي جديد، كان السبيل إلى ما أشرنا إليه من متغيرات، فاجأت رموز السلطة وأصنام ثوابتها، في كلا البلدين، بل فاجأت أطرافا ورموزا وعناوين من بعض قوى المعارضة فيهما، ممّا اضطرها إلى الالتحاق بقوى الانتفاضة من الشباب والاصطفاف معها وترديد شعاراتها.

غير أن هذا الالتحاق لا يعني أن الكثير من المعارضين سيعيدون النظر في ثوابتهم وقناعاتهم وما نشأوا عليه في الفكر والممارسة، بل إن بعضهم، وهذا ما ظهر في بعض كتاباتهم وتصريحاتهم، من ادعى دورا في ما حدث ويحدث، وهم لا في عير الناس ولا في نفيرهم.

وسواء في العراق أم في لبنان، كانت السلطة وقواها على صعيد العناوين السياسية أو الاجتماعية أو الميليشياوية، مطمئنة إلى ثوابتها الطائفية والمعلوماتية وما اصطنعته من افتراضات الفرقة والصراع، وكأن الآخرين، أفرادا وجماعات، من دون وعي، أو أنهم مجرد صدى لثوابتهم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إن جميع السلطات تحيل أي نشاط يختلف معها، سواء كان فرديا أم جماعيا، إلى مؤثرات خارجية، وقد رصدنا هذا الموقف من خلال تصريحات تثير السخرية بشأن انتفاضتي العراق ولبنان، فالذين جاؤوا برفقة قوات الاحتلال وبحمايتها، وعلى ناقلات الجنود والطائرات والدبابات الأميركية من سياسيي الغفلة، كما كان الأمر في العراق وهم ما زالوا يعملون كمخبرين صغار، يتّهمون الملايين من العراقيين وفي جميع المدن العراقية ممّن دفع بهم فساد المتسلطين وخراب وطنهم، ووعيهم الوطني وكرامتهم إلى مواجهة رصاص الغدر والخسة بصدورهم العارية، بفرضية تنفيذ مخطط أجنبي، ويذكرون عددا من الدول الأجنبية لا رابط بينها في سياساتها ويزايدون في توجيه تهمة مثيرة للسخرية والغضب في آن واحد.

استراحة المتظاهر (تصوير باتريك باز)

إن الذين يتهمون الانتفاضة والمنتفضين بتنفيذ مخطط أجنبي، فيهم من قاتل في جيش وميليشيات أعداء وطنه وشعبه، وأعلن من دون تردّد أو حياء، أنه في حال أي صراع بين بلاده وسلطة الولي الفقيه، وهي المعزولة والمرفوضة حتى داخل إيران، سيكون مع سلطة ولاية الفقيه لا مع بلاده.

وفي لبنان لا تقل الصورة وقاحة وبشاعة، عمّا هي عليه في العراق، فمن يعترف بأن أمواله وسلاحه مصدرهما إيران، يتهم جميع الذين انتفضوا من اللبنانيين من أجل حقهم في الحياة وكرامة وطنهم، بأنهم عملاء أميركا وإسرائيل، وكأن إيران ليست كيانا أجنبيا وليست دولة لها مشروعها التوسعي، وهم بعض أدوات هذا المشروع.

إن مواقف هؤلاء، وفي الحالتين اللتين أشرت إليهما، مصدرها خلل في الوعي ونقص في القدرة على إدراك المتغيرات، التي طالما فاجأتهم وعصفت بأوهامهم، وهم من المنغلقين على قناعاتهم ومحيطهم الضيق، ولا يستمعون إلا لأنفسهم وإلى المحيطين بهم من الجهلاء والمنتفعين والمزوّرين والطبالين، ولا يواجهون هذه المفاجأة بالانفتاح والحوار والوعي، بل يستنفرون كل ما لديهم من أسباب التسويغ والتبرير والقمع، وبكل أشكال القمع.

غير أن كل هذه المفردات لم تنجح في إنهاء المواجهة بين مستجدات الوعي وثوابت السلطة وتشبثها بقناعاتها، ممّا يؤدي بها إلى العزلة والانهيار ومن ثم السقوط، بعد أن تفقد أعلى أصوات مؤيديها ومنظريها ضجيجا، وكذلك أقرب المحسوبين عليها والمدافعين عنها في زمن قوتها وما توفره من مغانم مادية ومعنوية.

> التجارب الإنسانية في كل زمان ومكان، كان فيها النصر لوعي المتغيرات، حتى يكاد يكون الجديد هو المستقبل

وما أشرت إليه بشأن عدم إدراك المتغيرات لا ينصرف إلى الموقف من انتفاضتي شعبي العراق ولبنان، بل يشمل تجارب وأمثلة كثيرة على عدم إدراك المتغيرات ومواجهتها بالتغاضي حينا وبتوجيه الاتهامات ومحاولة تشويه من يمثلها حينا آخر أو بالقمع والعنف.

وليس أقرب إلينا من تجربة الاتحاد السوفييتي والمنظومة الاشتراكية وما آلت إليه، وما زلت أتذكر وأنا في مقتبل الصبا، أهزوجة نوري السعيد، السياسي العراقي المخضرم ورئيس الوزراء ذي الخبرة والتجربة، "دار السيد مامونة"، أي أن سلطته بمأمن من المتغيرات، ثم كان هو والسلطة التي يمثلها ضحية عدم إدراك المتغيرات.

وأخيرا، أكرّر ما ذكرته في البداية، فما ذكرته من أمثلة لا أقصد منها جانبها السياسي المباشر، بل أردت منها تأكيد طبيعة وعي بعض الأفراد والجماعات، وخاصة في مواقع المسؤولية، حين لا يدركون المتغيرات التي تحيط بهم، ومن ثم تعصف بهم هذه المتغيرات.